الكفاءة التواصلية
في فن تشكيل مابعد الحداثة

جنان محمد أحمد

ملخص البحث

تقدم هذه الدراسة مفهوم التواصل كرؤية نقدية تحليلية للفن عموما والتشكيل المعاصر على نحو خاص، فالفن يعد وسيلة من وسائل الاتصال لأنه نشاط للمشاركة في المعلومة او المعاني، حيث العمل الفني هو الرسالة التي تتضمن ما يبثه الفنان من افكار الى المتلقي، وعليه فأن لغة التواصل بين الفنان والمتلقي تتم عبر العمل الفني (ايا كان تخصصه مسرحياً، تشكيلياً، موسيقياً) وما يحمله من معنى ظاهرا كان ام باطناً، لتتأطر العلاقة بين الفنان ومتلقيه والتي تحيلنا بدورها الى قضية التواصل بينهما.

وفي ذلك يتحدد البحث الذي نسعى من خلاله لرصد العلاقة التواصلية بين الفنان وتطورات مجتمعه من جهة، وعلاقته با لاخر من جهة اخرى في مرحلة مابعد الحداثة، فهذا الفن (فن مابعد الحداثة) نشأ مع مجموعة مفاهيم فكرية، كما ارتبط بالتغيرات المتسارعة التي كانت من نتائج التداخلات الثقافية وتمازجها بالتكنولوجيا الجديدة في النصف الثاني من القرن العشرين، وهنا يأتي دور الفنان الذي لابد ان يواجه هذه التغيرات المتسارعة والمتداخلة بتبدل في سلوكه ازاء مجتمعه ورؤيته الفنية، بابداع شروط جديدة منقطعة مع التصورات المثالية والميتافيزيقية، وتبحث عن مشروعيتها في واقع جديد ميزته التبدل والتطور السريع والتعدد والتداخل بين مجالات معرفية متنوعة، ليواجه الثورة الاعلامية والاتصالية وفهم ونقد ما تشهده تلك المجتمعات المعاصرة من ظواهر جديدة اسهمت في خلق تغير جذري على الشروط التواصلية بين الفنان وجمهوره، وبين ثقافة باخرى، بالتأكيد على تجاوز الاشكال التقليدية المكونة لعالم الثقافة والفن، وابتكار اسلوب فني جديد (في آلياته، ونظمه التركيبية) من اجل تحقيق رسالته التواصلية المتبادلة.

وفي سياق هذه التحولات يصبح للفعل التواصلي دورا مهما في الكشف عن قابلية الفنان وقدرته على تحويل العمل الفني من بنية ساكنة الى اخرى منفتحة ومتفتحة على المجتمع، حاملة لمقومات الابداع والتجديد والنقد. وقد تم التوصل الى ذلك من خلال ثلاثة مباحث.

الاول: يبحث في التأسيس الفلسفي للتواصل، والمبحث الثاني: يبحث في الكفاءة التواصلية في الفن، من خلال ثلاثة محاور (العقل التواصلي) و(العالم المعيش) و(مستويات التفاعل بين المتلقي والعمل الفني)، اما المبحث الثالث فيتضمن النشاط التواصلي والسياق التفاعلي وتطبيقاته في فنون مابعد الحداثة.

وعلى وفق هذه المباحث وتحقيقاً لأهداف البحث تم التوصل الى عدد من النتائج التي انحصرت اهميتها في الاتي:

- الفعل التواصلي نشاط قائم على نظام فكري مرتبط بالارادة والوعي، ويتحقق هذا الفعل من خلال ثلاثة ابعاد: (البعد الانساني) و(البعد الفكري)، والبعد القائم على التفاهم) فاستقبال العمل الفني يخلق نوع من الاتفاق يؤدي الى العلاقات المشتركة بين الاخرين والتفاهم المتبادل.
- يتحقق الفعل التواصلي لدى الفنان من خلال: تنشيط العقل التواصلي بعد الفنان ذاتاً قادرة على الفعل بهدف التوجه نحو التفاهم مع المتلقي.
- يخقق العمل الفني مابعد الحداثي كفاءته التواصلية في انفتاحه وتواصله مع الاخرين ويصبح العمل الفني منتجاً مفتوحاً بفضل قابليته لاستيعاب تفسيرات متعددة.
- يحقق المتلقي كفاءته التواصلية بلحظة استقبال العمل الفني، من خلال الربط بين المكونات الداخلية للعمل الفني وبين مكونات العالم المعيش.

ABSTRACT

This study presents the concept of communicating as criticism analytical vision of art in general and contemporary composition particularly. Art is a means of communication for that activity to participate in the information or meanings, where the artwork is the message that includes what the artist sends ideas ,to the recipient . Thus, the language of communication between the artist and the receiver are made through the artwork (whatever his specialty: theatrically, plastic art, musically) and the magnitude of the meaning of outwardly or inwardly, is determined by the relationship between the artist and the recipient of which lead us turn to the issue of communication between them . .

At that determined search through which we seek to monitor the communicative relationship between the artist and society by developments, and its relationship to the other from the other side in the post-modernism monitor .

This art (the art of postmodernism) grew up with intellectual concepts group , Also associated the rapid changes that were the results of cultural interactions and mixing with the new technology in the second half of the twentieth century . Here comes the role of the artist, who must face this rapidly changing and overlapping change in his behavior towards his community and his artistic vision , Creatively new conditions disconnected with perceptions of idealism and metaphysics, and looking for legitimacy in a new reality advantage rapid development and multiplicity and overlap

between the various areas of knowledge , To face the media and communication revolution, understand and critique what those witnessing contemporary societies of new phenomena have contributed to the creation of a radical change to the terms communication between artist and audience, and between the culture of another , Focusing on constituent bypass traditional forms to the world of culture and art, and invent a new style of art (in its mechanisms, and organized synthetic) in order to achieve his communicative mutual, In the context of these changes, start the research problem, raised by the question limited to: the way in which artist creates perceptions to create a renewable form of art, holds property communication among others, in a changing society and open-minded .

As the importance of research in communication, do not come from being a Building for a society based on knowledge and communication, but also to support and attributed art in general (and postmodern art, in particular) critical thinking and systematic scientific and renewable values. To be the goal of this study is: finding efficiency communicative in art in general, the art of composition in particular, the detection of an artist's ability to transform the artwork of the structure of static to another open and open to the community, bringing elements of creativity and innovation and cash through communication. And will be studied through three sections: the first deals with incorporation philosophical continue, and the second section looks at the efficiency communicative in art, through three axes first (mind communicative), II (World Living) and third (levels of interaction between the receiver and the artwork), either the third sectioncontains a communicative activity and interactive context in postmodern art ..

تقدمة

في واقع تهيمن عليه سلطة الآني والزائل والجاهز ، اتجهت الفلسفة المعاصرة للأنفتاح على الوجود والموجود أو – الكينونة والكائن بلغة هيدغر – ففتحت المجال لتجاورات جديدة بين الفلسفي والانساني في ارتباطهما بالواقع من جانب، وفي علاقة كل ذلك بمفاهيم راهنة من جانب آخر ، ويعدّ مبحث فلسفة التواصل الدليل على هذا المنعطف للفلسفة المعاصرة ، فالتواصل في تمظهراته المعرفية المتعددة ، يتموضع داخل مجتمع معين وينفذ بأدوات مجتمعية معينة ، هدفه ايصال رسالة تتضمن معلومات ممثله بالافكار والمشاعر والخبرات والقيم ، تتجسد في رمز يحمل معنى للآخر ، وغالبا مايمثل ذلك عبر التراتبية الالسنية المعروفة : المرسل الرسالة المرسل اليه . ولأن الفن الذي غالبا مايوصف بالعملية الفكرية المماثلة في نظمها للنتاجات المعرفية الاخرى ، فاننا ومن خلال هذا الدراسة نحاول تقديم مفهوم التواصل كرؤية نقدية تحليلية للفن عموما والتشكيل المعاصر على نحو خاص ، فالفن يعد وسيلة من وسائل الاتصال لأنه نشاط للمشاركة في المعلومة او المعاني ، حيث العمل الفني هو الرسالة التي تتضمن ما يبثه الفنان من افكار تنتظم بمساحة ووحدة شكلية ومكانية ، لتصبح هذه الرسالة ، منظومة او بناء لمجموع الأفكار التي تُبَث الى المتلقي . وعليه فأن لغة التواصل بين الفنان والمتلقي تتم عبر العمل الفني (ايا كان تخصصه مسرحيا ، تشكيليا ، موسيقيا) وما يحمله من معنى ظاهرا كان ام باطنا ، لتتأطر العلاقة بين الفنان ومتلقيه والتي تحيلنا بدورها الى قضية التواصل بينهما .

وفي ذلك يتحدد البحث الذي نحاول رسم خطوطه العامة والأولية والتي نسعى من خلاله رصد العلاقة التواصلية بين الفنان وتطورات مجتمعه من جهة ، وعلاقته بالآخر من جهة اخرى ـفي مرحلة مابعد الحداثة ، فهذا الفن (فن مابعد الحداثة) نشأ مع مجموعة مفاهيم متداخلة بالفكر مابعد الحداثي ، وهذا الآخر ارتبط في موقفه بالتغيرات المتسارعة التي كانت من نتائج التداخلات الثقافية وتمازجها بالتكنلوجيا الجديدة في النصف الثاني من القرن العشرين فكل سعي للبحث عن رموز جديدة اصبح مرتبطا بالمجتمع التكنولوجي الجديد ، وهنا يأتي دور الفنان الذي لابد ان يواجه هذه التغيرات المتسارعة والمتداخلة بتبدل في سلوكه ازاء مجتمعه ورؤيته الفنية ، بإبداع شروط جديدة منقطعة مع التصورات المثالية والميتافيزيقية ، وتبحث عن مشروعيتها في واقع جديد ميزته التبدل والتطور السريع ، والتعدد والتداخل بين مجالات معرفية متنوعة ، ليواجه الثورة الاعلامية والاتصالية وفهم ونقد ماتشهده تلك المجتمعات المعاصرة من ظواهر جديدة ، اسهمت في خلق تغير جذري على الشروط التواصلية بين الفنان وجمهوره وبين ثقافة وأخرى ، بالتأكيد على تجاوز الاشكال التقليدية المكونة لعالم الثقافة والفن ، وابتكار اسلوب فني جديد (في آلياته ، ونظمه التركيبية) من اجل تحقيق رسالته التواصلية المتبادلة .

وفي سياق هذه التحولات تنطلق مشكلة البحث التي يثيرها تساؤل ينحصر في الكيفية التي يتحقق بها الفعل التواصلي منذ لحظة انتاج العمل الفني وحتى مرحلة تلقيه . ولأن الكثير من الدراسات الاكاديمية المختصة بالفنون التشكيلية تفتقر لموضوع التواصل على النحو الموجة ، فان الأهمية البحثية للتواصل لاتأتي من كونه تأسيسا لمجتمع يقوم على المعرفة والتواصل فحسب ، بل لدعمه واسناده الفن عموما (وفن مابعد الحداثة على نحو خاص) بالفكر النقدي والمنهجي العلمي والقيم المتجددة . ليتموضع هدف هذه الدراسة في : تقصي الكفاءة التواصلية في الفن عموما ، وفن التشكيل على نحو خاص ، وذلك من خلال :

- الكشف عن الابعاد التي يحققها الفعل التواصلي في الفن .

- تقصي الكيفية التي يتحقق بها الفعل التواصلي في الفن ، ابتداءا بالفنان ومرورا بالعمل الفني وانتهاءا بلحظة تلقيه .
- اما حدود البحث فهي حد زماني يتمثل بفنون تشكيل مابعد الحداثة ، وتشمل الأساليب والإتجاهات التي انطلقت بعد الحرب العالمية الثانية أي بعد عام ١٩٤٥ كمرحلة مبكرة لمرحلة مابعد الحداثة ، وحتى وقتنا الحالي . وحد مكاني منفتح يشمل فنون امريكا واوربا .

أولاً: مفهوم التواصل .. وتداعياته الفلسفية والمعرفية

مفهوم التواصل

يشكل التواصل هاجسا نظريا وفكريا راهنا ، بل ان راهنيته في صيرورة لامتوقفة ، قياسا بأساليب وقنوات التبادل الانساني الدائمة التجدد ، ليصبح التواصل تقنية اجرائية وأساسية في فهم التفاعلات البشرية وتفسير النصوص والخبرات وكل طرائق الإرسال والتبادل ، لاسيما في زمن الثورة التكنولوجية التي باتت مصدرا للتواصل في المجتمعات المعاصرة كل الثقافات واللغات والتجارب وعلى حد قول (هابرماس) :(التواصل هو الفاعلية الوحيدة التي في امكانها إعادة ربط الصلة بين اطراف هذا العالم متقطع الاوصال ... الذي انقطعت صلته الحميمة بالانسان)(م ٩، ص١٩) .

وعلى الرغم من ان اللغة تعد من أهم آليات التواصل وتقنيات التبليغ ونقل الخبرات والمعارف من الأنا إلى الغير أو من المرسل إلى المخاطب. الا ان التواصل اليوم لايمكن حصر تحركاته داخل مجال محدد ، لأن الزمن المعاصر بثقافاته المتعددة ، خلق وساطات متنوعة وقنوات كثيرة توفر للأنسان امكانيات تواصلية لاحصر لها ، وتمكنه من انتاج زمنيته الخاصة ، ومن ثم فان التفكير في التواصل الإنساني اليوم بات تفكيرا في مسار انتاجه ، وايضا تفكير في عناصره والعوامل المتحكمة به ضمن المجال المخصص لإحتواءه ، ليصبح التواصل ومن خلال ذلك المجال المعرفي هو الممارسة او الفعل الذي يساعدنا للكشف عن طريقة التفكير في الاستراتيجيات الفاعلة التي تتحكم بها لعبة الرموز كأساس وشرط للتواصل الانساني .

لقد ثوّرت ظاهرتي الحداثة ومابعدها مفهوم التواصل ، وهذا الاخير بكل تعبيراته ، سمح لهاتين الظاهرتين بالانتشار اكثر وبالتفاعل او التنابذ مع مختلف المرجعيات الثقافية الانسانية سواء تلك التي تستجيب لضوابط العقل والتجربة وتقبل بإدماج بعض مقومات الحداثة ومابعدها ، او تلك التي بقيت محتفظة بالمعايير والقيم وبالتصورات التقليدية للكون والزمن والمجتمع) (م ١٥،ص ١٨١) .

ان التواصل بوصفه عملية نقل واستقبال المعلومات بين طرفين أو أكثر ، هو مفهوم يحمل تشابها في الدلالة والمعنى في كلا اللغتين العربية والاجنبية . ويدل على خلق الروابط الإنسانية بين الناس من خلال التبليغ والمشاركة في المعارف .

ففي اللغة العربية يعني التواصل: الاتصال ، الاقتران ، الصلة ، المواصلة ، الترابط ، الابلاغ (بلّغه أمر ما) ، الاعلان .

أما في الانكليزية فالتواصل يقابله المصطلح Continuite وهو يعني الاستمرارية ، ويتضمن مفهوما آخر يتلامس معه ، وهو مفهوم الاتصال communication .

ويحدد قاموس اكسفورد كلمة communion بمعني التشارك او المشاركة ، والتراسل ، والصلة الحميمة بين شخصين وأكثر ، وتبادل الافكار والمشاعر ، بينما كلمة communication تعني معلومات مبلغة ، رسالة (شفوية او خطية) تبادل الافكار او الآراء او المعلومات عن طريق الكلام او الكتابة او الاشارات ، وسائل الاتصال . (م ١٧ ، ص ٢٣٢) .

وكذلك في معناه الاصطلاحي ، حسب تعريف شارلز كولي Charles Cooley (التواصل هو الآلية التي بواسطته تتواجد العلاقات الانسانية وتتطور ، بالجمع بين ماينتجه العقل من رموز وبين وسائل نقلها أو تبليغها- مكانيا وتعزيزها زمانيا - ويتم ذلك من خلال تعابير الوجه ، حركة الجسد ، نغمة الصوت ، الكلمات ، الكتابة ، المطبوعات ، وكل ماتم اكتشافه من انجازات جديدة) (م ١٨) .

يتوضح في ذلك ان مفهوم التواصل يرتبط ارتباطا مباشرا بالوعي والإرادة ، وليس بآلية الاتصال كما هو في مجال الاعلام والاتصال ، فحسب تعريف (كولي) ان العملية التواصلية تعتمد اساليب ضمنية متعددة كالحركة والسلوك الجسدي واللغة الشفوية والمكتوبة ، وكذلك المشهد المصور ، من خلال انظمة رمزية ، كالاشارة والخطاب الشفوي والرسالة المكتوبة وحتى الصورة المرسومة ، حيث تتوزع فيها اشكال التواصل بين مجالات متعددة كاللغة والعلم والتقنية والفلسفة والثقافة والفن ، تحققها آلية العقل بجميع عملياته الفكرية والتجريبية، كالخيال والحواس والذاكرة والادراك ، والتي تؤدي دورا فاعلا في تحقيق التواصل . وهنا يمكن ان نورد تعريف زيكفريد .ج.سميث الذي يرى (ان التواصل هو مجموعة من الافعال (المعرفية – الاجتماعية) تستند الى خطاطات افعال بواسطة سنن او رموز يتم التفاهم من خلالها) (م ١١ ، ص ١٧) .

وعليه يكون التواصل – كمجموعة من الافعال المعرفية - هو عملية نقل الافكار والتجارب وتبادل المعارف وحتى المشاعر بين الافراد – وبوصفه نقلا وتبليغا – فهو يفترض مرسلا ورسالة ومستقبلا وشفرة يتفق في تسنينها كل من المتكلم والمستقبل ، وسياقا مرجعيا ومقصدية الرسالة وهو مايعني ارتباط العملية التواصلية بالفكر، لأنها تتضمن فكرة يراد ايصالها الى المتلقي وترمي الى تحقيق هدف معين . فيكون التواصل بذلك حاملا لوظيفتين :

١. وظيفة معرفية تتمثل في نقل الرموز الذهنية وتبليغها بوسائل متعددة (لغوية وغير لغوية)
٢. وظيفة تأثيرية حسية وجدانية ، تقوم على تمتين العلاقات الإنسانية وتفعيلها على مستوى متعدد ايضا (لفظي وغير لفظي) .

وعندما تتجاوز وظائف التواصل نطاقها اللغوي - الالسني ، فان هذا يعني الانفتاح على نوع جديد من جديد يدعوه (سبربر ولسن) بالتواصل الاشاري الاستدلالي ، الذي يتحدد بعمل معين لشخص ما ، يقصد منه ابلاغ الآخر بمعلومة معينة ، واستنادا الى ذلك (لايقتصر التواصل الاشاري الاستدلالي على استخدام القول لتبليغ معلومة بل انه يوجد كلما بلغنا شيئا ما وكان مقصد التواصل واضحا) (م ٣ ، ص ٨٠) .

يعني ذلك ان التواصل ينبني على مجموعة افعال : فعل نبلغ من خلاله احدا شيئاً ما ، وفعل أخر نتواصل من خلاله مع شخص ما ، وبذلك فان التواصل لايقتصر فقط على تبليغ المعلومات ، بل يشمل ايضا تبادل الافكار والاحاسيس والخطابات . وهذا مايخلق معنى جديد يرتبط بالانتظام ، ويعني كل علاقة ديناميكية ضمن حركية ما . فإن كان التواصل ينطلق من التأثير في الغير إلا أنه يهدف إلى تكوين فضاء عمومي تنبني فوقه العلاقات القائمة على الحوار.

خصائص وابعاد العملية التواصلية

من خلال ماسبق طرحة ، يتبين ان مفهوم التواصل يكشف عن ارتباطه بالوعي والارادة ، وليس بآليات الاتصال ، فان ذلك يستدعي استخلاص المبادئ العامة التي تقوم عليها العملية التواصلية والتي تميزها عن طرق الاتصال الاخرى وحصرها بالآتي :

- البعد الانساني : حيث ينبعث التواصل من جوهر العلاقات الانسانية ، فإذا كان التواصل ممارسة فعلية وادائية في أي مجال معرفي ، فهو لايبتعد عن مستوى العالم المعيش أي الوجود ، والذي لايمكن تحققه الا بالعلاقة الوثيقة بين مجموعة ذوات .
- البعد الفكري : لأن العملية التواصلية تتضمن فكرة يراد ايصالها الى المتلقي ، فهي بذلك عملية لايمكن عزلها عن الفكر الذي يستقر دائما في الرسالة الموجهة ، والمضمون واللغة والترميز والارسال والوسائل والاستقبال وتفكيك الرسالة والتأويل والادراك والاستجابة .
- البعد الافهامي : لايمكن ان يتحقق فعل التواصل رغم ارتباطه بالابعاد الثلاثة السابقة الا بتوفر البعد الافهامي ، من اجل ان تحقق الرسالة المتبادلة بين المرسل والمتلقي نسبة معينة من التفاهم والإفهام ، فالرسالة التي تحمل فكرة يراد ابلاغها الى الآخر لايكون الهدف في التوصيل بحد ذاته ، بل ماخلف التوصيل ، أي فهم الرسالة بعد استقبالها لأن الهدف من التفاهم هو الوصول الى نوع من الاتفاق يؤدي الى العلاقات المشتركة بين الذوات ، والتفاهم المتبادل والتقارب في وجهات النظر والآراء .

التواصل وتداعياته الفلسفية والمعرفية

ان أي مفهوم سواء كان فلسفيا او معرفيا ، لايمكن ان يكون اعتباطيا ، لأنه لاينشأ تلقائيا ، بل ينمو ويتطور وفق علاقات قرابة متبادلة ، وعليه فإن كل ماتم طرحه من مفاهيم تتعلق بالتواصل تكشف بانه مبحث ينفتح على تمظهرات فلسفية ولغوية متعددة . على الرغم من ان (عمر مهيبل) في كتابه -اشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة - يشير بعدم وجود مادة معطاة اسمها التواصل عند فيلسوف معين ، ماعدا هابرماس الذي يشكل البحث في هذا المفهوم تتويجا لجهده الفلسفي الاجمالي ، لذا فان البحث في تاريخية مفهوم التواصل ستتم بالكشف عن المنهجية التي تتعلق بتحليل فلسفة البعض ممن عبروا عن مفهوم التواصل ضمن فلسفتهم الخاصة ، وفي مقابل هؤلاء ننطلق الى مجال آخر نكشف به عن مدى استجابة كل فلسفة تناولت مفهوم التواصل ، وكل ذلك يعد كمرجعيات اسهمت في ظهور التواصل كأنموذج معرفي

وابتداءا بهيدغر الذي لم يبحث عن مفهوم التواصل بطريقة مباشرة ، الا انه يعبر عنه بقوله (ينبغي فهم ظاهرة التواصل في معنى واسع وانطولوجي ، فالقول الذي يسمح بنشر بلاغ او بإعلان صحيفة إخبارية ، ليس الا حالة خاصة من حالات التواصل في معناه العام ... فهو يحسن المشاركة في الشعور العام بالوضعية ، وفي فهم الوجود مع الاخرين ، فليس من مهمة التواصل نقل انطباعات وآراء ذات اخرى ، ان التواجد في جوهره يكون ... في الشعور العام بالوضعية ، وفي الفهم المشترك والوجود مع الآخر ، في الخطاب يكون متقاسما صراحة ، غير انه موجود سلفا) (م ١١ ، ص ١٥ ، ١٦) .

يتمظهر شكل التواصل في انطولوجيا هيدغر بمحاولة استعادة العلاقة الخاصة بين الموجود(أو الكائن بعدّه المادة الاولية لفلسفة الكينونة) والعالم ، وحقيقة الكائن لدى هيدغر لاتتمظهر الا من خلال مجموعة

صفات اهمها التواصل ، الذي يقسم الى تواصل خارجي وآخر داخلي ، ويتحقق الاول من خلال تواصل الكائن مع الآخر المشارك له في الكينونة ، وتواصله مع العالم بأشياءه المختلفة ، فالانسان يتجه الى الالتقاء بالاخرين في وجود مشترك في العالم ... بل ان هيدغر اجتهد في استعادة الوجود الانساني الى السكن في العالم والانغراز فيه بعمق والانفتاح على الاخر والاهتمام به ، وينطلق هيدغر في تعميق التواصل بمحاولته توسيع تحليله للعالم من زاوية العلاقات والتواصل بين الذوات التي يعقدها الانا مع الآخر ، وهو بذلك يعمق فكرته الرافضة للذات المجردة عن العالم و المنعزلة دون الآخرين وهي في حقيقتها محاولة لإستبعاد الفكر الميتافيزيقي بقوله (ان الوجود في العالم يعفي الانسان من التصور التأملي ومن السكن في عالم مفارق ... اذ لايمكن فهم العالم دون وجود علاقة مباشرة معه) (م ٥ ، ص ٥٩) .

اما (النظرية النقدية) فتعد منبعا خصبا لنشوء مبحث فلسفة التواصل عبر مدرسة فرانكفورت* التي كانت تضم مجموعة اساتذة مثل هوركهايمر و ادورنو وهربرت ماركوز وآخرين . تبنت هذه المدرسة النزعة النقدية تجاه المجتمع والمؤسسات الفكرية والاجتماعية ، وهدفها من ذلك هو النفاذ الى البنية الفكرية ، والى لغة التواصل والتخاطب بين الناس وربط توجهات العلم والمعرفة بالمصالح التي تحركها (فالنقد بمفهومه البنّاء هو أداتها لتجاوز الحالة الراهنة للانسان المعاصر التي صنعها واقع يعتمد في بنيته الاساسية على التسلط في اشكاله النفسية والسياسية والاقتصادية) (م ٧ ، ص ٧). وقد تطورت مدرسة فرانكفورت بطريقة مبدعة على يد هابرماس الذي قام ببناء نظرية اجتماعية مبنية على وعي تواصلي جديد ، يميز فيها ثلاثة اشكال من المعرفة ترتكز على ثلاثة مصالح مؤسسة لها** ، حيث تتناظر اشكال المعرفة الثلاثة مع ثلاث قسمات رئيسية للحياة الاجتماعية وهي العمل والتفاعل والتسلط ، (وقد استبدل هابرماس هذه النظرية بأخرى بديلا عنها هي نظرية للغة والاتصال) (م ٦ ، ص ١١٢) .

اما التداولية أو (علم استعمال اللغة) pragmatique فتعد منعرجا حاسما في بلورة مبحث التواصل بشكله الحالي ، باستنادها الى اللغة كأداة لتمثيل المعرفة والمعلومة وابلاغها وفي بحثها عن المعنى . والتداولية هي برنامج معرفي يعود الى الخمسينيات من القرن العشرين وتحديدا سنة ١٩٥٦ ، ويقوم هذا البرنامج على دراسة النظام الترميزي للغة – عمليتي انتاجها وتأويلها - فانتاج اللغة هي عملية ترميز بينما عملية التأويل هي فك المرموز ، بمعنى ان محاولة فهم اللغة يأتي في سياق الاستعمال المتجدد بتجدد مقاصد المتكلمين ، وبذلك تهتم التداولية بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها والتعابير التي تستقي دلالاتها من معطيات التواصل ، ولأنها ترى ان افعال اللغة هي افعال الانسان ، فاللغة بنظرها تصبح أداة التواصل الاساسية ، ويعني ذلك ان استعمال اللغة

* مدرسة فرانكفورت : تأسست عام ١٩٢٤ على الرغم من انها تستند في اصولها النظرية الى الفلسفة الماركسية ، الا انها تدخل في اطار اهتمامات فلسفية اخرى ترتبط بالاوضاع السياسية والاجتماعية لألمانيا المعاصرة .

** المعرفة التقنية ، قائمة على الاحتياجات المادية والعمل الذي يشكل الميدان المستهدف للعلم التجريبي التحليلي ، ومعرفة عملية في التفاهم الاتصالي بين الافراد وبين الجماعات الاجتماعية فيما بينها. ثم المعرفة التحررية وهدفها التحرر من كل مايعيق انعتاق الذات وتحررها . يراجع : بوتومور، توم : مدرسة فرانكفورت ، ت سعد هجرس ، دار اويا ، ليبيا ، ط٢ ، ٢٠٠٤ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

لايمكن فصله عن القدرات البشرية -الاستدلال والمعارف الاخرى- التي ليس لها أي صبغة لسانية) (م ٣ ، ص ٢٢). وفي هذا التوجه تصبح العمليات الاستدلالية المتممة للتحليل الرمزي لتحقيق التأويل للأقوال والافعال ، متمثلة في العمليات التي تطبق في جميع اعمالنا سواء كانت انشطة يومية من الحياة العادية ام انشطة اكثر تعقيدا مثل البحث العلمي او انتاج الاعمال الفنية

ثانياً: الكفاءة التواصلية في الفن

الكفاءة التواصلية هي مجموع العمليات المعرفية والقدرات العقلية والمهارات الفكرية التي تترجم الى لغة او خطاب ، والتي يستطيع بواسطتها الفرد أن يدخل في علاقة تواصلية مع الآخرين وعند ارتباطها بالفن المعاصر الذي اصبح ذي طبيعة اجتماعية في ظل الواقع المعاصر ، فان الكفاءة التواصلية تهيئ للبحث عن قيمة الموضوعات المقدمة ، حيث تكمن ميزتها في غنى الدلالات والمعاني التي يزخر بها العمل الفني ، والتي تمكن الفنان من بناء تصوراته ونماذج الواقع او حتى تغيير الواقع بناءاً على شروط تداولية تجعل من تلك الدلالات مرتبطة على نحو مباشر بالعلاقات الاجتماعية والثقافية . فالفنان المعاصر استطاع ان يعمل على نسج تواصله مع الآخر ، مركزا على كل مايتعلق بانتاج المعنى الذي لاينتجه بشكل اعتباطي ، انما اصبح متولدا داخل سياق اجتماعي ليحقق فكرته على وفق قيم مستمدة من الايقاع التواصلي وفاعليته بين الاخرين ، أي من فكرة التذاوت والتفاهم . وعليه فان التفاعل والتذاوت يحصل هنا داخل العمل الفني الذي يعد كسياق تواصلي يتميز بالإعتراف المتبادل ، والفنان – كفاعل- يحقق هدفه والشروط الملائمة لما يتطلع اليه من عمله الفني المقدم ، بإختيار ادواته ومواد اظهاره الملائمة ، ليصبح هذا العمل الذي هو العنصر المركزي والمشروع العملي المؤسس على تأويل معين ، بمثابة بنية تكوينية لكل مفاهيم النشاط .

العقل التواصلي

الكفاءة التواصلية بوصفها فاعلية موجهه الى التفاهم ، فانها تكون نوعا من النشاط العقلاني بالقياس الى غاية، يجعلها تهتم بما ينتج داخل التفاعلات الاجتماعية بين الافراد الذين يتواصلون من اجل تحقيق مشروع معين . وكما يرى هابرماس فان هذا النشاط العقلاني له بعد اجتماعي لأنه يظهر في سياق منطق تفاعلي يفترض ضرورة علاقة تذاوتية ، يشترط فهم النشاط العقلاني في طبيعة التواصل اومايدعوه هابرماس بـــ(العقل التواصلي) حيث لايمكن تحقيق فهم خاص للفن يمكن به تجاوز الفهم الميتافيزيقي ، وإقامة روابط تعاون مع المجالات المعرفية المجاورة الا من خلال العقل المتواصل مع غيره ، فالعقل التواصلي هو الذي ينظم النشاط الاتصالي ويضمن النقد المستمر لأي حقيقة ، وبحسب هابرماس فان (العقل التواصلي هو الفاعلية التي تتجاوز العقل المتمركز حول الذات والعقل الشمولي المنغلق الذي يدعي انه يتضمن كل شيء) (م٤،ص١٣٥)

لهذا العقل خصوصية تكمن في انه يُبنى على فعل خلاق يهدف الى خلق اتفاق داخل الفضاء العام لنشاطه ، وبه يتمكن الفنان من انتزاع جزءا من ذاتيته لدمجها مع الآخرين المشاركين له في نشاطه في عمل متفاعل يقوم على التفاهم والتواصل العقلي ، لأن هذا الاخير بإمكانه ان ينظم النشاط الاتصالي ، لينتج عن ذلك مايدعى بالنشاط العقلي التواصلي الذي يمارسه الفنان كذات قادرة على الفعل بهدف التوجه نحو التفاهم بين الذوات .

ان المحاولة الكامنة في ربط مفهوم التواصل بالفنون المعاصرة ، تستهدف البحث عن شروط الفن – والفنان- في علاقته بمجتمع معين من جانب ، والنظر في مقومات العقل المولّد للفنون المعاصرة وتحديدا فنون مابعد الحداثة التي نتجت عن عمليات بحث ومشروع متسلسل ومتجدد وفي اتصال غير منقطع ، تعتمد التجربة على نحو خاص ، بوصفها معايير نشأت من خبرات الفنان ، التي تعد كمؤشرات تؤكد ان الفنان مابعد الحداثي لم يعد يقنع بالتحرك فقط داخل مفاهيم تقليدية ، بل يسعى الى تجربة جديدة تحيل عمله الفني لأحداث التجربة من خلال العقل ، لأن الفن اصبح يتوالد من نظرة جديدة الى العالم ، ومن طريقة جديدة للتوصل الى الأشياء ، واصبح من مهمة الفنان الانفتاح على العالم الخارجي والتعايش معه ، بحثا عن عالم القيم الجديدة ، ولا يتم التوصل الى ذلك الا بنوع من ديالكتيك المتناقضات بين ماهو داخلي وماهو خارجي ، او بين ما يعايشه ومايفكر به وفي علاقته بالآخر .

خلاصة ذلك ان الكفاءة التواصلية لدى الفنان تتضمن معقوليتها الخاصة ، متمثلة في نوعين من النشاط ، الاول نشاط موجه نحو التفاهم ، والثاني مرتبط بالنشاط الادائي ، ليظهر لنا ان الكفاءة التواصلية هي عبارة عن صياغة جديدة لمسألة العقلانية في الفكر ، تؤسس لنظرية في المعرفة ، ومن ثم فإن فن مابعد الحداثة يمكن ادراك حركته وتعبيراته من خلال النمط التواصلي الذي يبرز اهمية التفاعل كنشاط تواصلي مصاغ بواسطة رموز خاضعة لمعايير يحددها الفنان ذاته ، وهذا النوع من التفاعل كما يقصد به هابرماس (ان يكون محددا لانتظارات مختلف انماط السلوك المتبادلة على اساس ان تكون مفهومة ومعترف بها من طرف ذاتين فاعلتين على الاقل) (م ١٥ ، ص ١٨٢) . ويعني ذلك ان منطلق هذا التفاعل هو منطق حواري يرجع الى السياق العام للتبادل ، يشكل تذاوتا متكونا بين المشاركين على اساس الاعتراف المتبادل بالتجربة او النشاط الفني ، الذي يفترض معرفة مشتركة او تأثير يمارسه الفنان على الآخرين ، ووجود هذه المعرفة المشتركة لايكفي ان تكون للفاعلين وجهات نظر متقاربة او حتى وعي بهذا التقارب ، لأن المعرفة المشتركة التي تقوم بوظيفة التنسيق بين الافعال تعمل على توليد الموقف التفاهمي في التفاعل وتشكل تداخلا بين المشاركين .

التواصل في العالم المعيش

تتشكل عملية التفاهم بين الذوات من خلال فكرة العالم المعيش – التي قال بها هابرماس -

وهي فكرة مكملة لمفهوم العقل التواصلي لأنها مرتبطة بمفهوم المجتمع كما انها تشكل سياق الفعل الاجتماعي في الفن ، فالعقل التواصلي ومن خلال الوظائف التي يقوم بها ، يُوجِد عالم متنوع الابنية ، من خلال العالم المعيش ، الذي تتمثل مهمته في توفير بعض عناصر السياق التي يحتاجها التواصل ، وكذلك في كونه (أي العالم المعيش) يعد مستودعا من القناعات يستلهم منه المشاركون في التفاعل بعض علاماته ورموزه لتحقيق الحاجة الى التفاهم الذي يتولد بواسطة مجموعة من التأويلات التي تخلق الإجماع ، والعالم المعيش بوصفه خلفية للنشاط التواصلي ، فان ذلك يعني ان المشاركين في التواصل ، ومن اجل خلق نوع من التفاهم حول العمل الفني ، يجب ان يرتبطوا بتراث ثقافي يستمدون منه بعض العناصر لتحقيق التواصل ، وهذا التراث الثقافي الخاص بمجتمع معين ، غالبا ماينتظم في جملة من العناصر المتماسكة والمتكاملة فيما بينها ، وهو مايؤكده (شتراوس) بقوله:(ان الحياة الاجتماعية تنضوي تحت طموح الكلية ، فهي نظام ترتبط به عضويا كل الجوانب) (م ١٣ ، ص ١٠) . وهنا تتحدد الوظيفة التفاهمية من خلال مجموعة من البنى الرمزية للعالم المعيش وهي :

- من الزاوية الوظيفية للتفاهم : يعمل النشاط التواصلي على نقل التراث الثقافي وتجديده .
- ومن وجهة نظر تنسيق الفعل : يقوم النشاط التواصلي بوظائف الاندماج الاجتماعي من خلال العمل على استقرار اشكال التضامن بين الافراد المشاركين في مستوى فهم الفعل التواصلي
- من زاوية التنشئة : يقوم النشاط التواصلي بدور تشكيل الهويات الفردية للمشاركين في تلقي العمل الفني ، كونهم متلقين فاعلين . (ينظر المخطط)

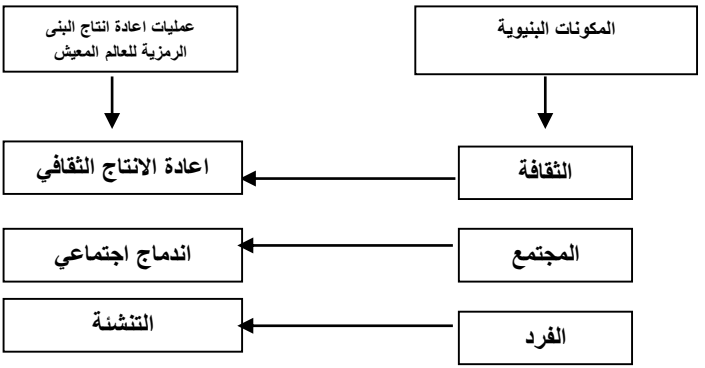

الاستقبال والتواصل: مستويات التفاعل بين المتلقي والعمل الفني

يصنف الاستقبال الذي يرتبط بمعنى التلقي والإستجابة ، ضمن النظرية العامة للاتصال. حيث تتحدد قيمته المجتمعية بعد الوصول الى مرحلة استهلاك المتلقي للعمل الفني بوصفه موضوع جمالي قابل للتأويل ، وهو مايؤكده (هانز اوريش جمبريشت) الذي يرى : (بأن الاستقبال يؤلف الجانب الخلفي من الاجراءات الاتصالية ، فالقراءة وفهم النص مثل منتجهما معنيان كذلك بالخطوات الاجتماعية) (م ٨ ، ص ١٨٩) .

وعليه يعرف الاستقبال الذي يكون مرتبطا بمعنى التلقي : بأنه إعادة الإنتاج ، والتكييف والاستيعاب ، والتقييم النقدي ، للعمل الفني او لعناصره ، بإدماجه في علاقات اوسع ، وهذا يعني ان الاستقبال ليس مجرد استهلاك ، انما هو عملية فاعلة في(الفهم) والتقييم وإعادة الانتاج

ولأن العمل الفني يكتسب جماليته ومعناه ، من صلته بعدد من المنظورات المختلفة التي يمكن رؤيته وفهمه من خلالها ، فإن التساؤل حول نوع المعاني التي يتم انتاجها في العمل الفني يجعل المشكلة تتمحور في معنى المعنى ، ومعنى فهم العمل الفني او فهم تعبيره هو موضوع يتعلق بنظرية الدلالة المؤسسة على التداوليات الصورية – حسب تعبير هابرماس – فالدلالة الصورية تحدث قطيعة مفهومية بين مايدل عليه العمل الفني ومايريد الفنان قوله ، لأن دلالة موضوع العمل الفني لايمكن تفسيرها في استقلالية تامة عن الشروط التي تحدد مقاييس توظيفها التواصلي ، وعليه فان تحديد نمط الفاعلية التواصلية يشترط الالتزام بسياقات التفاعل ، وذلك بالبحث عن كيفية انفتاح العمل الفني الذي يتموضع في علاقة تبادلية مع بيئاته واستقباله من قبل المتلقين.

فيحدث عند استلهام المتلقين العمل الفني ، انهم يقومون بعملية إعادة انتاج البنى الرمزيـة لـه ، لكـون العمل الفني هو الظاهرة او النص (من وجهة نظر البنيويون) الذين يعتقدون (ان أي ظـاهرة انمـا تنطـوي عـلى بنية ، من هنا فإن النص يتحـول الى شـفرة تسـتدعي القيـام بجهـد نظـري وإجـرائي لوضـع تلـك الشـفرة موضـع التواصل) (م ١٠ ، ص ٣٦) . وقياسا على ذلك فان العمل الفني هو بنية تتضمن نظام قائم على نمط التشفير ، أي يكون محاطا ذاتيا بقوانين تنظيم داخلي تمثلها انظمة انتاج المعرفة - شـبكة انظمـة العلامـة والشـفرات - وهـذه ترتبط بعلاقة تقابلية مع عناصر البناء الخارجية -النصوص السابقة عليه والسياقات والمتناصات- . وعلى الرغم من كون العمل الفني علامة مرور يمكن رؤيتها وفهمها ، الا انه بالإمكان تجاوز تلك العلامات ، عنـدما يصـبح العمـل الفني ممتلكا لمديات اوسع في كفاءته التواصلية في حالة انفتاحه ليتواصل الآخر معه ، منذ لحظة اسـتقباله حتـى تفسيرة ، وهو مايؤكده (ريكو) الذي يرى (ان هذه العلامة عند تجليها في معنى فنتازي بواسطة تخيليـة ، فانهـا تكف عن ان تكون مجرد تلك الإشارة المرورية بذلك المعنى الخاص ، من هنا فالعمل الفني شكل مكتمل ومعالج في تفرده ككل عضوي متوازن ، في الوقت الذي يشكل فيه منتجا مفتوحا بفضل قابليتـه لتفسـيرات لاحصر لهـا ، لاتتصادم مع خصوصيته الصرفة ، وعليه فإن كل استقبال للعمل الفني هو تفسـير وعـرض لـه في آن ، لأن العمـل يتخذ في كل استقبال منظورا طازجا) (م ١٦ ، ص ٢٣٤) .

وحين يمتلك العمل الفني قابليته على الانفتاح ، فانه يمنح الآخر اسلوب جديد للإستقبال يكون على صلة بالعمل الفني ، واسلوب الإستقبال هذا ، يتبع نموذجا جديدا في الثقافة والجماليات عنـدما يكـون قـابلا للإنفتـاح على سلسلة جديدة من العلاقات بين الفنان والمتلقين ، وآليات جديدة للإدراك الجمالي ، ويطرح مشكلات عمليـة جديدة بتنظيمه مواقف تواصلية جديدة ، وهو بإختصار يثبت علاقة جديدة بين تكاملية العمل الفني وتاويلـه . وفضلا عما يتم استقباله في بنية العمل الفني (أي قوانين تنظيمـه الداخليـة) لتحقيـق فعـل التواصـل مـن خـلال التأويل ، فان العالم المعيش يعد حيزا رئيسا يسند العمل الفني الحامل لشروط التواصـل ويـزوده بـبعض رمـوزه وعلاماته وهنا يبدأ دور جديد من ادوار النشاط التواصلي ، والذي يكمن في فاعلية المتلقـين او المشـاركين الـذين يقومون بفعل التأويل ، بالعودة الى اشياء العالم الموضوعي (الثقافي) والعالم الاجتماعي والعالم الذاتي (م ١٥ ، ص ١٩٣) ، حيث يتم التفاعل بين هذه العوالم الثلاثة لتحقيق فعل التأويـل بإضـفاء شيء مـن النسـبية في تـأويلاتهم (لان الانسان يحيا في عالم رمزي ، فكل حقيقة تكون بالنسبة اليه رمزية ، فالاحكام والتقييمات والمـدركات تكـون كلها نسبية مع النظام الثقافي الذي ينتمي اليه ، وحسب اعتقاد (هيرسكوفيتش) ان كل حقيقة واقعية يتم ادراكها عبر نظام ثقافي معين) (م ١٣ ، ص ١٠) .

ان عملية إعادة الانتاج تتولى مهمة الربط بـين مـايتم اسـتقباله في بنيـة العمـل الفنـي (قـوانين تنظيمـه الداخلية) ، وبين الاشكال القائمة في العالم المعـيش (عنـاصر البنـاء الخارجيـة) ، ولايـتم هـذا الارتبـاط الا بتـوفر مجموعة أسس على المستقبلين استيعابها ، اولها امكانية الاحتفاظ بصلاحية المعرفة بالتراث الثقـافي والعمـل عـلى تجديد تلك المعرفة ، وكذلك التأكيد على خاصية التضامن بين المتشاركين في فعل التواصل ، وهذه الاسـس تلخـص الى مايسمى بـ(المكونات البنيوية للعالم المعيش) وهي مكونات خاصة بعناصر البناء الخارجية ، وتتمثل في الثقافة والمجتمع والفرد ، يقابلها مكونات اخرى ، تتمثل في دلالات المعاني والمضامين المتعلقـة بالعمـل الفنـي كموضـوع ثقافي ، والمجال الاجتماعي للمتفاعلين في تلقي العمل الفني ، وايضا عـلى مسـتوى الـزمن التـاريخي حـين يـدخل العمل الفني مستوى تعاقب الاجيال . وهذه المكونات خاصة بقوانين تنظيم العمل الفني الداخلية ، وهنا تصبح

الثقافة هي العنصر المهم الذي يستمد منه المشاركون في التواصل تأويلاتهم حول العمل الفني . وبرأي (ريكو) (إن كل مستهلك وهو يتفاعل مع مجموع المثيرات بمحاولته فهم علاقاتها ، يمارس احساسا شخصيا وثقافة معينة واذواقا واتجاهات واحكاما قبلية توجه متعته في اطار منظور خاص به ... ان عملية الاستحسان تنبع من التمتع بالعمل الفني الذي يرجع الى كوننا نعطيه تأويلا ونمنحه تنفيذا ونعيد احياءه في اطار اصيل . (م ٢ ، ص ٨) . وبذلك فأن الحقل الدلالي للمضامين الثقافية ، والمجال الاجتماعي ، والزمن التاريخي تكون هي الابعاد التي تتطور فيها الانشطة التواصلية ، أي ان التفاعلات التي تنسج شبكة الممارسة التواصلية في الفن تكون الوسط الذي من خلاله تتم اعادة انتاج الثقافة والمجتمع والشخص .

ثالثاً: النشاط التواصلي والسياق التفاعلي وتطبيقاتها في فنون مابعد الحداثة

على اثر التغيرات السريعة في البنية الفكرية التي انعكست على خصائص الثقافة الشمولية التي مرت بها المجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية ، مارست مابعد الحداثة عملها بإكتساحها للبنى والذهنيات السابقة وفعلها التفكيكي على الثقافات المغايره لها ، بتطويرها لطرق واساليب جديدة في المعرفة ، قائمة على حرية التعبير والتجريب في العمل والتواصل ، بالانفتاح على كل ماهو جديد ، ليعد العلامة المميزه لكل عمل يحيا بدلالة المستقبل والمشاركة مع الآخر ، وبما يضفي على الثقافة الجماهيرية قدرا اكبر من المرونة في استثمار الرموز والمعطيات ، وحسب وصف (فردريك جيمسون) الذي استخلص نتيجة يؤكد من خلالها:(ان مابعد الحداثة اصبحت تعبر عن الحقيقة المركبة للنظام الاجتماعي الجديد للرأسمالية في مرحلتها المتقدمة ، فثقافتها تناسب الأنماط الجديدة من الاستهلاك وسرعة استعمال الموضة الدقيق للوقت) (م ١٩ ، ص ٧٦) . بمعنى ان تشكل الواقع الجديد الذي تعيشه مابعد الحداثة ، اصبح يتطلع الى صورة مستقبلية ترتكز الى وسائل الاتصال التي اخترقت تطوراتها كل جوانب الوجود الإنساني ومستوياته . إن ما يشير اليه (جيمسون) يؤكد الفعل التواصلي التجريبي الذي اصبح الأداة التي بامكانها اعادة ربط الصلة بين اطراف مجتمع متشظي وفوضوي .

لقد اصبحت مابعد الحداثة متقبلة لمجتمع التعددية الثقافية ، وعملت على نقل العالم الى مرحلة تذويب ومن ثم الغاء الفوارق الثقافية المعرفية ، بقصد الغاء القطيعة بين ثقافة النخبة ، واالثقافة الشعبية ، بتأكيدها ان كل فرد هو جزء من مجتمع انساني محلي ، لذلك كان سعي مابعد الحداثة لخلق نماذج جديدة تتناسب مع مفاهيمها الرافضة لمظاهر السلطة ، بإحلال الضرورة في قبول التغير المستمر ، والمتولد عن سيطرة عالم تكنولوجي استهلاكي سريع . وفي مقابل ذلك دعا الفنانين لإمتزاج الفن بالحياة المدينية ، بتأكيد مفهوم التواصل الذي يدعو الجماهير للأنفتاح على الأفكار الفنية الجديدة ونظرتهم التقييمية لها ، لينعكس ذلك على الكيفية التي اصبحوا يفكرون بها ، وبطريقه تسمح بالكشف من خلال افكار المتلقين للفن الجديد عن فهم طبيعة ذلك المجتمع . ونجد ان هذا الموقف يتلائم مع رأي (هابرماس) الذي ينفي وجود العزلة بين الفن والمجتمع ، لأن الفن الحديث اصبح بنظره مرآة نقدية للعالم الاجتماعي ، مؤكدا (ان الفن يلعب دورا هاما ورئيسيا في الحياة ، فالفن يستطيع ان يقوم بعملية توحيد المجالات المعرفية والاخلاقية وتقديمها للمجتمع في صورة فنية جذابة) (م ٤ ، ص ١١٣) .

لقد اصبح لفن مابعد الحداثة قوة جمالية خطابية ، فمن جانب تمكن من التكيف مع كل المعطيات الجديدة للتواصل بمطالبته محو الفوارق بين الحقول الفنية المختلفة التي أرادت ان تكون اساسا للتجديد والسعي

الى التفرد ، ومن جانب آخر اصبح الفن اكثر تنوعا بتفاعله وإنفتاحه على اشكال التطور الفعلية للمجتمع مابعد الصناعي، بعالمه الممتلئ بالسلع الإستهلاكية والتكنلوجيا الحديثة ، حتى اصبح لعالم دائرة وسائل الإتصال والإعلام الجماهيري اهميته بالنسبة لفن مابعد الحداثة ، بإعتماد مبدأ التفاعل بين الفنان والجمهور ، لإبتكار عمل فني يتطلب مشاركة الناس العاديين ، وهو ما اسهم في ان يؤثر ليس على المتلقي فحسب بل على الفنانين انفسهم . وبذلك اسهمت هذه الفنون في إثارة الجدل في الاوساط الثقافية لتفتح النقاش المستمر حول دور محتمل للمتلقي في عملية الابداع ، ومعه ايضا مهمة اجتماعية جديدة للفنان لم يعهدها من قبل تكمن في قابليته للتواصل مع الآخر ومدى الكفاءة التي يتمتع بها في مهمته التواصلية . فما قدمه فنانو الخمسينيات من اعمال ، اعلنت بداية التوالد السريع لعدد من الاشكال والممارسات الفنية التي شدت الانتباه الى وجود المشاهد امام العمل الفني ، واهتمت بدوره ونشاطه في التلقي ، بل ان البعض من هذه الاشكال سعت الى تذويب الوجود المادي للعمل الفني وهو ماساعد على نقله الى مجال فن التشكيل الادائي ، ففي مجموعة اعماله المساة اللوحات البيضاء والتي رسمها بين (١٩٥١ و ٥٢) وضع راوشنبرغ حدود العمل الفني واكتماله في ذاته ، موضع تساؤل بصورة واضحة فكانت اعماله عبارة عن لوحات خالية بيضاء وقصده من ذلك ان يسمح بدخول عناصر جديدة الى تلك اللوحات البيضاء ، فبعد اضاءتها بطريقة معينة يصبح ممكنا ان تنكعس على تلك اللوحات ظلال عديدة من محيطها المادي (قاعة العرض والمشاهدين) بمعنى ان الفنان يسمح للآخر ان يتفاعل ويتواصل مع لوحته البيضاء بسقوط ظلال المشاهدين عليها ، لتصبح نوعا من التكوين المفتوح الذي يستجيب لمجموع الانشطة التي تقع ضمن محيطه . (شكل ١)

إن العمل المفتوح بلغة (امبرتو ايكو) هو ان تبدو الاعمال الفنية غير مكتملة ، بإمتلاكها شكلا غير محدد، وانفتاحا ديناميا للتعبير عن نفسها أمام المتلقي بمظاهر دائمة التجدد (ومثل تلك الاعمال تحوي عناصر نصية وشكلية مفتوحة امام المراجعة المستمرة وإعادة الانتاج ، وحركية شكلها الداخلية تؤسس لإمكان الحوار او التفاعل بين المؤلف والمتلقي) (م ١٦ ، ص ٢١٦) .

وعلى هذا الاساس سعى الفنان مابعد الحداثي الى إيجاد مساحة تسمح بمساءلة فكرة العمل الفني بإستخدامه مفردات تولد حوارا وتلاعبا بين الصورة وطريقة تمثيلها) (م ١٢ ، ص ٤٢) . ففي أغلب الاعمال التركيبية نجد ان معظم العناصر المستخدمة فيها تتميز بقدرتها على الاحتفاظ بجانب من هويتها الاصلية ومن ثم باستقلالها الذاتي عن العمل الذي تم ادماجها فيه ، ومثل هذه العناصر تحقق فعلا مزدوجا ، فتضع علامة استفهام حول فرضية وحدة اللوحة واكتمالها الذاتي ، بمقاومة أي اكتمال نهائي للشكل واي انغلاق نهائي للمعنى ، برفضها الخضوع التام للقيود التي يفرضها الشكل الفني او للمنطق الذي يحكم اتساقه . وهذا مانجده في معظم أعمال راوشنبرغ ، وبعض اعمال جاسبر جونز (شكل ٢ و ٣) اللذان تمكنا من توظيف مثل هذه العناصر لإثارة التساؤلات حول طبيعة اللغة الفنية للوحة ، وليفسحا المجال لخلق علاقة تواصلية بين العمل الفني ومتلقية ، وبذلك جعلا العمل الفني يخاطب المتلقي ويعبر صراحة عن وعيه بوجوده ونشاطه . ومثل هذه الاعمال التركيبية ، تنطلق من مبدأ اساسي يثبت بان العمل الفني لايكتسب شرعيته من التكامل الشكلي للسطح المرسوم فقط ، بل يسعى الى استثارة استجابة تواصلية فعلية من المشاهد . وهنا يتحدد الدور الفاعل في فن التجميع (او التركيب) في تغيير مفهوم الجمال ودور الفن في خلق علاقة تواصلية مع المجتمع ، حيث يتواكب هذا النوع من الفن مع فكرة الجمع والانصهار التام بين مجالات الفن المختلفة ، بتوظيف اسس بناء تكوين الصورة مع مفهوم الكتلة في

النحت في عمل فني واحد، اعتمادا على المتغيرات التي لم تكن معهودة في حركة الفن التشكيلي فيما يتعلق بمفهوم الأداء ، واساس ذلك هي رغبة الفنان في الانفتاح لتنشيط قدراته الخيالية والدافعية الجمالية التي تثير لدى الفنان الرغبة في الانفتاح نحو فضاءات ابستيمولوجية رافضة للتنميط التقليدي للفن ، وتحثه للبحث عن الغرابة من جانب وتنشيط التجربة الجمالية من جانب آخر ، (فالتجربة الجمالية تدع الموضوع يكشف عن وجوده الحر لأنها تعتمد على التخيل ، فتغدو كلا من الذات والموضوع احرارا بمعنى جديد ، ويترتب على هذا التغير الجذري في الموقف من الوجود صفة جديدة للمتعة الجمالية التي يصنفها الشكل الذي يتكشف الموضوع من خلاله) (م ١ ، ص ٧٦ ، ٧٧) .

في الكثير من النتاجات الفنية لمرحلة مابعد الحداثة بسعى الفنان الى هدف فكري – تواصلي ، يقصد منه إحالة العمل الى تجربة المتلقين لتوعيتهم ، بتعود ادراك قوة الأشياء التقنية . ان مايُقصَد بإحالة العمل الى تجربة المتلقي ، هو تجاوز الفنان انتاج عمله ، لإستشراف زمن المستقبل ، ولأن الفنان يعمل من اجل جموع المتلقين ، فلابد له من استقراء السيكولوجية الجمعية لديهم ، وهنا تكمن خبرته في فهم آلية تلقي اعماله ، وهي خبرة تخصصية تتمتع بقدر كبير من الذكاء لإثارة المتلقي واحداث فعل الصدمة والمفاجأة لديه من خلال لعبة المشاكسة ، وقد بالغ البعض في هذه اللعبة بمحاولته نقل عمله الفني الى خارج بيئته (أي قاعة العرض) لتأكيد انهيار الحدود الفاصلة بين العمل الفني وسياقه المادي ، وبالتالي بين البيئة والانشطة التي تدور في محيطها ، فقدم (اولدنبرغ) عام ١٩٦١ عملا فنيا بعنوان (المتجر)(شكل ٤) قام فيه بالمزج بين العمل الفني ومكان عرضه ، فأستخدم متجرا حقيقيا في احد شوارع نيويورك ووضع فيه مايقرب من ١٢٠ سلعة مما يستخدم في الحياة اليومية، أعاد تشكيلها من مواد منوعة وعرضها للبيع ،

فتعامل مع المكان الحقيقي كحيز في العالم المعيش ، وفي ذلك تأكيد لدور العقل التواصلي فكان اختيار الفنان لمتجر حقيقي عاملا ادى الى الدمج بين ثلاثة أدوار ، دور المشاهد والمستهلك ، وبين دور الفنان والبائع وبين دور العمل الفني والسلعة التجارية وكلها تحقق وظائف تواصلية ، وهذا المكان الذي يوجه اولدنبرغ الانتباه اليه يحمل دلالتين مختلفتين هما المتجر والعمل الفني ، وبما يعمل على انقسام هوية الاشياء والادوار وتشظيها بين هاتين الدلالتين والى نشوب صراع بين المعاني المتضاربة ، ويبدو ان الهدف الحقيقي لهذا العمل وكذلك معناه لا يكمنان في ماهية العمل ذاتها ولكن في قدرته على توليد عدد من القراءات المتضاربة والجمع بين امكانات متصارعة (م ١٢ ، ص ٤٧) .

وتعد اغلب فنون مابعد الحداثة كأعمال منفتحة تتطلب ان يعاد فيها التفكير وان تعاش من جديد باستخدام العديد من الوسائل ومنها اللغة التي تعد في الأساس نتاج تواصل ، فالفنان يستخدم اللغة بوصفها منهجا اتصاليا ووسيلة تواصلية فكرية ، تكشف عن مبررات تمثيل العمل الفني ، حيث تتموضع العلامات اللغوية، الى جوار الاشكال الاخرى ، فالكتابات اللغوية في مثل هكذا اعمال التي تعد كرموز ، انما تفصح عن قابلية العمل لإستدعاء الآخرين للمشاركة في هذه الرموز ، بحيث يكونوا قادرين على تفكيكها وفهم مضامينها، وهنا تصبح اللغة مؤسسة تتعالى على الذات المنتجة لتشمل الآخرين ، فهي وسيلة للتواصل والتوحيد بين المتشاركين ، تمكنهم من التفاهم وادراك مواضع الاختلاف والتقارب بين الافكار . ففي النظام التجريبي لـــ(الفن – لغة)(شكل ٥) يكشف لنا عن اعمال تحقق مفهوم التواصل بواسطة اللغة التي يعتمد تفسيرها على الطبيعة الافتراضية التي لايمكن ان تمنح المعنى اليقين المطلق بل تؤكد احتماليته فقط ، لأن الكلمات لايشترط اتفاقها على معنى او يقين

معرفي ، بل انها تحمل دلالة عملية خالصة ، لأنها كلمات قائمة على التوافق الفكري ، وهنا يبدأ دور جديد من ادوار النشاط التواصلي ، والذي يكمن في فاعلية المتلقين او المشاركين الذين يقومون بفعل التأويل ، بالعودة الى اشياء العالم الموضوعي (الثقافي) اذ يتحقق فعل التأويل بناءا على نسبية الحقائق واحتماليتها .

وفي بعض الاعمال التجهيزية يستخدم الفنان اللغة ليصبح العمل عبارة عن رسائل موجهة تستدعي مشاركة المشاهد مع نصوص ذات مفاهيم ضمنية ، حيث يتم استثمار الطبيعة المزدوجة للغة ، لتتمكن من التعبير عن اشياءها بمعايير الخيال في هذا النوع من الاعمال التي تميزت بها (بربارا كروجر)(شكل ٦) يحصل التفاعل او التذاوت داخل العمل الفني بعده سياق تواصلي ومن ثم يصبح هذا العمل هو العنصر المركزي المؤسس على تأويل معين وهو بمثابة بنية تكوينية لمفهوم النشاط التواصلي بين الفنان ومجموع المتلقين الذين اصبحوا مشاركين في العمل حين دخولهم مساحته ، كما ان العمل الفني يتعرض لمفهوم الانتشار (بحسب بارت) (حيث يصبح النص – العمل الفني- متفجرا الى ماهو ابعد من المعاني الثابتة ، الى حركة مطلقة من المعاني اللانهائية التي تتحرك منتشرة فوق النص ، عابرة كل الحواجز) (م ١٤ ، ص ٣٣) .

اما في الفن التفاعلي الذي يدعى ايضا بالفن التساهمي لأنه فن ينزل الى الشارع ليصبح أداة تواصل ، فهنا يتأكد الجانب الاجتماعي لأن العمل الفني يقوم بتنظيم مواقف تواصلية ـ فالحيز هو العالم المعيش الذي يضم كلا من العمل الفني ومتلقيه ، ومع هذا الحيز يمتلك العمل قابليته على الانفتاح ، لانه اصبح ممتلكا لمديات مكانية اوسع لأستقباله وبالتالي فان الحيز الذي يتضمنه العالم المعيش يساعد في تنشيط الكفاءة التواصلية للعمل بانفتاحه وتواصله مع الاخر لحظة استقباله .

وبانتشار الفن التفاعلي في ميادين فنية حديثة كالفنون الرقمية والضوئية ، دخل الفن مجالات اوسع للمشاركة مع الآخر ، اذ استطاع هذا الفن ان يمنح امكانية اوسع ليحصل التذاوت في فعل التواصل ، حيث يصبح المتلقي في مركز الحدث الفني ، متضمنا سلسلة تجارب لايمكن ان تتحقق فاعليتها الا بمشاركة الجمهور(شكل ٧ و ٨) .

النتائج

١. يعدّ التواصل عملية اجرائية قائمة على فهم التفاعلات البشرية وتفسير النصوص والخبرات وهو ايضا نوع من النشاط او الفعل الحامل لوظيفة معرفية تتمثل في نقل الرموز الذهنية وتبليغها ومن ثم استقبالها بوسائل متعددة ، بما يعني انه نشاط قائم على نظام فكري مرتبط بالارادة والوعي ، ولايتم تحقق هذا الفعل الا من خلال ثلاثة ابعاد اولها البعد الانساني الذي يكمن في العلاقات الوثيقة بين الذوات ، والبعد الفكري ، حيث يترتبط التواصل بالفكر الذي يتمحور حول النشاط الموجه ومضمونه واللغة الرمزية المستخدمة ، والكيفية التي يوجه بها هذا النشاط ، وكذلك استقباله وتفكيكه وتأويله وادراكه والاستجابه له ، والبعد القائم على هدف التفاهم بعد استقبال العمل المنتج لخلق نوع من الاتفاق يؤدي الى العلاقات المشتركة بين الذوات والتفاهم المتبادل .

٢. وتتحقق الفاعلية التواصلية في الفن من خلال دور الفنان والعمل الفني والمستقبل ، بالنسبة للفنان فان فاعليته التواصلية تتمثل في نوعين من النشاط ، الاول هو نشاط موجه نحو التفاهم ، والثاني مرتبط بالنشاط الادائي ، ويحقق ذلك قدرته على انتاج عمله الفني في سياق منطق تفاعلي يفترض ضرورة تذاوتية ، أي دمج جزء من ذاتيته مع الآخرين المشاركين في نشاطه في عمل متفاعل ويعني

ذلك تنشيط للعقل التواصلي الذي يمارسه الفنان كذات قادرة على الفعل بهدف التوجه نحو التفاهم بين الذوات .

٣. اما العمل الفني فيمتلك فاعليته التواصلية لكونه اولا بنية تتضمن نظام قائم على نمط التشفير ، أي يكون محاطا ذاتيا بقوانين تنظيم داخلي تمثلها انظمة انتاج المعرفة - شبكة انظمة العلامة والشفرات – وعند تجاوز تلك النظم الرمزية والعلاماتية ، يصبح العمل الفني ممتلكا لمديات اوسع في كفاءته التواصلية في انفتاحة وتواصله مع الآخرين ومفهوم الانفتاح بموضع العمل الفني في علاقة تبادلية مع بيئاته ويصبح منتجا مفتوحا بفضل قابليته لأستيعاب تفسيرات متعددة .

٤. ويأتي دور المتلقي في تحقيق كفاءته التواصلية فالاستقبال يعد عملية فاعلة في(الفهم) والتقييم وإعادة انتاج البنى الرمزية للعمل الفني ، وعملية إعادة الانتاج تتطلب الربط بين المكونات الداخلية للعمل الفني وبين مكونات العالم المعيش ، المكونات الاولى تتمثل في دلالات المعاني والمضامين المتعلقة بالعمل الفني كموضوع ثقافي ، والمجال الاجتماعي للمتفاعلين في تلقي العمل الفني ، وايضا على مستوى الزمن التاريخي حين يدخل العمل الفني مستوى تعاقب الاجيال ، والمكونات الاخرى للعالم المعيش المتمثلة في الثقافة والمجتمع والفرد ، بما يعني ان الثقافة هي المعرفة التي يستمد منها المشاركون في التواصل تأويلاتهم حينما يتفاهمون حول العمل الفني الذي ينتمي الى العالم .

المصادر

١. اميرة حلمي مطر ، مقدمة في علم الجمال وفلسفة الفن ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
٢. ايكو ، امبرتو : الاثر المفتوح ، ت عبدالرحمن بوعلي ، دار الحوار ، سوريا ، ط٢ ، ٢٠٠١
٣. روبول، آن و جاك موشلار:التداولية اليوم ، ت سيف الدين دغفوس ، المنظمة العربية للترجمة، لبنان ٢٠٠٣
٤. ابو النور حمدي ابو النور : يورجين هابرماس (الاخلاق والتواصل) ، دار التنوير ، بيروت، ٢٠٠٩
٥. الفريوي ، علي الحبيب : مارتن هيدغر (نقد العقل الميتافيزيقي) ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٨
٦. بوتومور، توم : مدرسة فرانكفورت ، ت سعد هجرس ، دار اويا ، ليبيا ، ط٢ ، ٢٠٠٤
٧. رمضان بسطاويسي :علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت،المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ، ١٩٨٩ .
٨. روبرت سي هولب : نظرية الاستقبال ، ت رعد عبدالجليل جواد ، دار الحوار ، سوريا ، ط٢ ، ٢٠٠٧ .
٩. جان ماري فيري : فلسلفة التواصل ، ت عمر مهيبل ، منشورات الاختلاف ، ٢٠٠٦.
١٠. عبدالناصر حسن محمد : نظرية التوصيل ، القاهرة ، ١٩٩٩.
١١. عمر مهيبل : اشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة ، منشورات الاختلاف،الجزائر ، ٢٠٠٥
١٢. كاي ، نك : مابعد الحداثية والفنون الادائية ، ت نهاد صليحة ، الهيئة المصرية للكتاب، ط ٢ ، ١٩٩٩
١٣. محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي: دفاتر فلسفية (الطبيعة والثقافة)، دار توبقال، المغرب، ١٩٩١
١٤. محمد عزام : التلقي والتأويل ، دار الينابيع ، دمشق ، ٢٠٠٧ .
١٥. محمد نورالدين افاية:الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، افريقيا الشرق بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٨ .
١٦. هارتلي ، جون : الصناعات الابداعية ، ت بدر السيد سليمان الرفاعي ، عالم المعرفة، الكويت ، ٢٠٠٧ .
١٧. Oxford Advanced Learner's Dictionary of current English,AP Cowie,oxford university press,١٩٨٩
١٨. charles Horton Cooley:Social Organization. www.brocku.ca/meadproject/coolly.
١٩. Jameson, Fredric : Postmodernism, or, The Cultural Logic of Late Capitalism, New left Review ,.١٩٨٤

شكل (١) راوشنبرغ

شكل (2) راوشنبرغ

شكل (3) جاسبر جونز

شكل (٤)

شكل (٥)

شكل (6) بربارا كروجر

شكل (٧)

شكل (٨)